أثر القرآن الكريم في بقاء اللغة العربية

وانتشارها

بحث أعده

أ. د / فهد بن عبد الرحمن الرومي

أستاذ الدراسات القرآنية

جامعة الملك سعود

للمشاركة به

في مؤتمر

(اللغة العربية بين الانقراض والتطور – التحديات والتوقعات)

والذي ينظمه في اندونيسيا – جاكرتا (اتحاد مدرسي اللغة العربية باندونيسيا)

خلال الفترة .

١٠ – ١٣ / ٨ / ١٤٣١ الموافق ٢٢ -٢٥ / ٧ / ٢٠١٠ م

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي أنزل القرآن بلسان عربي مبين والصلاة والسلام على النبي العربي الأمين.

أما بعد

فقد تلقيت دعوة كريمة للمشاركة في مؤتمر (اللغة العربية بين الإنقراض والتطور – التحديات والتوقعات) والذي ينظمه (اتحاد مدرسي اللغة العربية بأندونيسيا) خلال الفترة ١٠ – ١٣ / ٨ / ١٤٣١ الموافق ٢٢–٢٥/٧/٢٠١٠ م.

وزاد سروري أنه يعقد في أكثر بلدان العالم الإسلامي سكاناً وأكثرها لغات ولهجات.

ولا شك أن هذه البلاد وما حولها لم تصلها الجيوش الإسلامية وإنما فتحت بالقرآن.

فقد هاجر إلى هذه البلدان عدد من المسلمين عاشوا بين أهلها محافظين على دينهم ملتزمين بعبادتهم فكانوا قدوة في تعاملهم وسلوكهم حتى أقبل هذه البلدان على دراسة دينهم وكتابهم ثم دخلوا في دين الله أفواجاً والحمد لله.

وكان لهذا الدين أثره في بقاء اللغة العربية وانتشارها وتعلمها وتعليمها وها نحن نأتي من جزيرة العرب إلى أقصى المشرق لدراستها مع نخبة من مثقفي العالم الإسلامي.

ورغبت في أن تكون ورقتي بعنوان " **أثر القرآن الكريم في بقاء اللغة العربية وانتشارها** " ليكون هذا نبراساً في طريق العلاج ومنهاجاً في طريق الإصلاح وأسأل الله التوفيق والسداد.

كتبه

أ.د / فهد بن عبد الرحمن الرومي
أستاذ الدراسات القرآنية
جامعة الملك سعود.

تمهيد :

لاشك أن للغة بعد الدين الأثر الكبير في وحدة الأمم وترابطها وتكاتفها والتماس مصالحها.

إن أهمية اللغة ومكانتها لا تنحصر في تواصل الناطقين بها، أو بالقول إنها وعاء للمعاني العقدية أو الفكرية والثقافية أو أنها أداة تفكير ووسيلة إبداع بل مكانتها أسمى من ذلك كله إنها هوية تختزل ماضي الأمة بموروثها الحضاري والسيادي وتقترن قوتها بقوة أبنائها وتجسد حاضرها من خلال العلاقة الجدلية بين هوان أبنائها وضعفها [١].

ولعل محمود درويش أراد هذا المعنى في جداريته حينما ربط بين ضياع اللغة والموت فهو يرى أن الموت هو موت اللغة وعدم القدرة على النطق حين كتب على ورقة الطبيب لقد فقدت اللغة أي لم يبق مني شيء[٢].

ولذا قام هذا الدين على تأسيس اللغة العربية ونشرها والدعوة إلى تأدية أكثر العبادات بها من صلاة وتلاوة وأذان وغير ذلك.

ونجد أن الثورات ضد هذا الدين تسعى أول ما تسعى إلى سلخ أهل البلاد عن اللغة العربية كما فعل أتاتورك والاستعمار الغربي الحديث، ويأبى الدين إلا أن يعود إلى اللغة وتأبى اللغة إلا أن تعود إلى هذا الدين.

كما نجد أن الاستعمار يبذل كل نفيس لتعلم أهل البلاد لغته سواء كانت إنجليزية أو فرنسية أو غيرهما ويتعاهد ذلك ويرعاه لما في الترابط اللغوي بينه وهذه

---

(١) اللغة العربية والعولمة : د. عمر عبد الهادي عتيق (منتدى أنصار السنة)

(٢) أساليب المواجهة الفكرية – نوافذ الدخول إلى المستقبل : فوزي معروف ص ١٥٤ .

البلاد – بعد أن جلا منها بجيوشه – من أثر بل من آثار اقتصادية وسياسية وعلمية وغير ذلك.

ولما كان هذا ظاهراً فإن تعاهد اللغة العربية وترسيخها وتنقيتها مما شابها أمر ضروري لابد منه لإحياء التواصل بين دول العالم الإسلامي وإذكاء رابطة التأخي والترابط " إنما المؤمنون إخوة "

وعلى المصلحين أن يبحثوا عن أسباب إحياء اللغة وسبل بعثها من جديد، وطرق تجديدها وتقوية أواصرها والتماس ذلك بدراسة تاريخها وأحوالها عل ذلك يؤدي إلى تلك الثمار.

وقد حرصت أن أعرض في ورقتي هذه أمرين:

الأول : شواهد تأثير القرآن الكريم في بقاء اللغة وانتشارها وبراهينه.

والثاني : معالم هذا التأثير ومظاهره.

المبحث الأول : شواهد تأثير القرآن الكريم في بقاء اللغة العربية وانتشارها وبراهينه .

الشواهد والأدلة والبراهين على أثر القرآن الكريم في بقاء اللغة العربية وديمومتها وانتشارها ظاهرة بارزة اذكر منها : -

أولاً : نزول القرآن بلسان عربي مبين.

وهذا معلوم من الدين بالضرورة ونصت عليه آيات كثيرة كقوله تعالى " لسان الذي يلحدون إليه أعجمي وهذا لسان عربي مبين " ١٠٣ : النحل. " لتكون من المنذرين بلسان عربي مبين" ١٩٥ : الشعراء " وهذا كتاب مصدق لساناً عربياً " ١٢ : الأحقاف " فإنما يسرناه بلسانك لتبشر به المتقين وتنذر به قوما لدا " ٩٧ : مريم ، " فإنما يسرناه بلسانك لعلهم يتذكرون " ٥٨ : الدخان " إنا أنزلناه قرآنا عربياً لعلك تعقلون " ٢ : يوسف " وكذلك أنزلناه حكما عربياً " ٢٧ : الرعد " وكذلك أنزلناه قرآنا عربياً " ١١٢ : طه " قرآنا عربياً غير ذي عوج لعلهم يتقون " ٢٨ : الزمر "كتاب فصلت آياته قرآنا عربياً لقوم يعلمون " ٢ فصلت " وكذلك أوحينا إليك قرآنا عربيا " ٧ : الشورى " إنا جعلناه قرآنا عربيا لعلكم تعقلون " ٣ : الزخرف.

إن وراء هذا التأكيد القرآني على عربية القرآن ما وراءه لوحدة الأمة في عقيدتها وشريعتها ولغتها ووراء هذه الوحدة ما وراءها من قوة للأمة وتآلف بين أفرادها وترابط وتآخي.

إن هذا التأكيد على عربية القرآن ونزوله بلسان عربي مبين لمن أقوى الدواعي وأدعى الأسباب لبقاء اللغة العربية ما بقي القرآن فبلسانها يتحدث وبألفاظها يخاطب

المسلمين عامة في كل مكان وكل زمان ولو لم يكن من أسباب بقاء اللغة العربية إلا هذا السبب لكفى في خلودها وبقائها.

ثانياً : أن لغة هذا الدين هي العربية :

فكما أن القرآن نزل بلسان عربي مبين فإن لغة هذا الدين كله هي العربية وذلك أن مصدر التشريع هو الكتاب والسنة وهما بلسان عربي مبين.

وقامت تشريعات هذا الدين على اللغة العربية في أداء العبادات والشعائر الإسلامية.

وكل من أراد أن يعرف هذا الدين معرفة كاملة فليقرأه بلغته ولذا نجد في أعلام المسلمين المروزي والأصبهاني والبهيقي والهمداني والنيسابوري والتستري والقرطبي والجرجاني والأندلسي والرومي والطوسي والفارسي والقزويني والزمخشري، والأفغاني والخراساني والفيروز آبادي والألباني وهم يكتبون باللغة العربية ويعلمون ويتعلمون بها.

ولذا نجد الإقبال الكبير في أمريكا وأوروبا وكثير من دول العالم على تعلم اللغة العربية بعد أحداث الحادي عشر من سبتمبر وما ذاك إلا للرغبة في معرفة هذا الدين وكان لذلك أثره في إسلام العدد الكثير منهم بعيداً عن جو التشويه المتعمد لهذا الدين بلغاتهم.

ثالثاً : وجوب أداء بعض العبادات باللغة العربية:

وكان من عوامل بقاء اللغة العربية وانتشارها اشتراط أداء بعض العبادات باللغة العربية مما جعل المسلمين كلهم في كل أنحاء المعمورة يعرفون من العربية ما يؤدون به صلواتهم وعبادتهم.

فلا تجد مسلماً لا يحفظ شيئاً من القرآن يؤدي به صلواته وهي ركن من أركان الاسلام وعمود هذا الدين.

وها نحن نشمع الآذان في كل بلد باللغة العربية، ونسمع الملبين والطائفيين والركع السجود يناجون ربهم بالدعاء باللغة العربية.

وكم وقفنا وقد احتبست الدموع في أعيننا في آسيا وأفريقيا أمام من يهفو قلبه أو يهفو فؤاده لسماع حديثنا معهم باللغة العربية وما ذاك إلا لاستيلاء الإيمان على قلوبهم وتشوقهم للغة القرآن.

ما كان هذا ليحدث للغة لو لم تدعمها عقيدة تقف خلفها وتدفعها للإنتشار.

بل بلغ تأثرهم وتمازجهم مع هذه اللغة أنك لاتكاد تجد لغة من لغات المسلمين لم تتأثر باللغة العربية فتجد في الأندونيسية والماليزية والأفغانية والأوروبية والهندية والفارسية والتركية ولغات أفريقية عديدة ألفاظاً عديدة مقتبسة من اللغة العربية.

المبحث الثاني : معالم هذا التأثير ومظاهره:

مما لاشك فيه أن لأثر القرآن الكريم في اللغة العربية ونزوله بها وجعل اللغة العربية لغة هذا الدين وأداء بعض العبادات بهذه اللغة لا شك أن لهذا أثره الظاهر ومعالمه الثابتة على اللغة العربية وتتمثل هذه المعالم والظواهر في أمور عدة منها :

أولاً : بقاء اللغة العربية وديمومتها:

ولا يخفى أن تاريخ اللغات لم يعرف لغة خلدها كتابها إلا اللغة العربية.

واللغة كائن حي خاضع لقانون النشأة والارتقاء فهي تقوى وتضعف وتحيي وتموت وقد رأينا حضارات سادت واتسعت وقويت وكانت لها لغتها الخاصة ثم ضعفت وتقلصت ثم بادت وبادت معها لغتها فأصبحنا لانعرف عنها إلا أسمها وشيئا يسيراً كاللغة الفينيقية والأشورية والسنسكريتية ولغة الفراعنة في مصر. وطوى الدهر هذه اللغات ومحا آثارها مع ما كان لأهلها من حضارة ومدنية وسلطان ولم تغني عنها حضارتها شيئاً.

حاشا اللغة العربية التي مرت بأحوال عجيبة وأمور غريبة ما كان يحسب لها معها البقاء فضلاً عن الانتشار.

كانت اللغة العربية لغة بداوة تعرف الصحراء والناقة والبعير والجبال والوهاد والأودية، والضب واليربوع، والشيح والقيصوم والعرار.

ولم تكن لغة قوم يحسب لها حساب أو ذات حضارة كحضارة اليونان أو الصين ترغم الناس على حفظها أو نشرها كما فعلت بالأمس القريب دول الاستعمار.

حتى في العصر الإسلامي لم تكن للغة سلطة تحميها فقد أخذ نفوذ العرب يضعف بعد سقوط الدولة الأموية وصارت أمور الدولة تدار بأيد غير عربية في أصولها وصارت الخلافة ألقاباً في غير موضعها بل رأينا نفوذ الدولة الإسلامية

يضعف حين سقطت بغداد في يد التتار الذين ارتكبوا المذابح للعلماء والسلاطين وكتب العلم وتوالت المحن والفتن على الأمة ولغتها ومع هذا فلم يؤثر ذلك في بقاء اللغة العربية فلم تدع أمة من الأمم المعتدية إلى إزالة اللغة العربية واستبدال لغتهم بها ولن تستطيع ذلك لو حاولته.

فلم يجتمع للغة العربية من دواعي البقاء كالحضارة أو المدنية أو النفوذ أو السلطان ما يدعو إلى بقائها بل كانت دواعي الفناء والزوال محيطة بها مما مرت به الأمة من هذه المحن والفتن والغزو التتاري والصليبي وغيرهما فلم يجتمع للغة العربية في كل العصور سلطة ترغب فيها أو ترهب من تركها. فما السر إذا في بقائها إنه القرآن سر بقائها، وعلة دوامها، الذي أعطاها من نفوذه، وأمدها بروحه، وسقاها ورعاها واحتواها حتى بقيت ببقائه ودامت بدوامه.

فللقرآن مكانته وله منزلته في الشريعة الإسلامية وفي نفوس المسلمين والمهتدين إلى هذا الدين فما إن خالط القرآن قلوبهم، ومازج أرواحهم، حتى أقبلوا عليه يتلونه ويتعلمونه ويتدارسونه ويرتلونه ويقومون به آناء الليل وأطراف النهار، وأقبلوا على لغته يتعلمونها ويتدارسونها حتى أصبح منهم أئمة اللغة ومرجع العلماء ومن لم ينل تلك الدرجة أقبل عليها بقلبه وروحه يرتل بها القرآن ويقرأ بها ما تيسر في صلواته ودعواته وهو ينظر إلى اللغة نظرة إجلال واحترام فهي جسر تواصله مع القرآن الذي أحبه وملك فؤاده ولبه، ولذا فلا عجب أن رأينا بعض الملاحدة وهم في سبيلهم إلى مهاجمة القرآن يحاربون لغته وينتقصون منها ويشككون في خصائصها ولله در حافظ إبراهيم القائل دفاعاً عن اللغة العربية:

رموني بعقم في الشباب وليتني ... عقمت فلم أجزع لقول عداتي
وسعت كتاب الله لفظاً وغاية ... وما ضقت عن آي به وعظات
فكيف أضيق اليوم عن وصف آلة ... وتنسيق أسماء لمخترعات
أنا البحر في أحشائه الدر كامن ... فهل ساءلوا الغواص عن صدفاتي

أيطـــريكم مـــن جانـــب الغـــرب ناعـــب ... ينــــادي بــــوأدي في ربيــــع حيـــــاتي
ســـقى الله في بطـــن الجزيـــرة أعظـــماً ... يعـــــز عليهـــــا أن تلـــين قنـــــاتي
حفظـــــن ودادي في الــــبلى وحفظتــــه ... لهـــــن بقلـــــب دائم الحسرـــــات
وفـــاخرت أهـــل الغـــرب والشرـــق مطـــرق ... حيــــاء بـــتلك الأعظـــم النخـــرات
أرى كل يـــــوم بالجرائـــــد مزلقـــــاً ... مـــــن القـــــبر يـــدنيني بغـــير أناة
وأسمـــع للكتـــاب في مصرـــ ضجـــةً ... فـــــأعلم أن النــــائحين نعـــــاتي
أيهجـــرني قـــومي عفـــا الله عـــنهم ... إلى لغـــــة لم تتصـــــل بـــــرواة؟
سرت لوثـــة الإفـــرنج فيهـــا كـــما سرى ... لعـــاب الأفـــاعي في مســـيل فـــرات
فجـــاءت كثـــوب ضم ســـبعين رقعـــة ... مشـــــكلة الألــــوان مختلفــــات
إلى معشرـــ الكتـــاب والجمـــع حافـــل ... بســـطت رجـــائي بعـــد بســـط شـــكاتي
فإمـــا حيـــاة تبعـــث الميـــت في الـــبلى ... وتنبـــت في تـــلك الرمـــوس رفـــاتي
وإمـــا ممـــات لا قيامـــة بعـــده ... ممـــات لعمـــري لم يقـــس بممـــات [1]

إن احتضان القرآن الكريم للغة العربية هو سر بقائها ودوامها بل نجد أن القرآن الكريم حفظ لنا لهجات عربية لا يرقى شك إلى فصاحتها وسلامة ألفاظها لغة وأداء ويظهر ذلك في القراءات القرآنية التي وصلت إلى درجة من الثبوت لا يدانيها ثبوت النصوص الأخرى من غير القرآن.

وهذا ما لم يستطع حتى الغرب إنكاره فهذا بير روسي يقول في كتابه " مدينة إيزيس " : – " إن الإسلام قد جعل من اللغة العربية لغة التعبير العالية التي لا مثيل لها، لغة إنسانية قومية في دوامها واستمرارها " [2].

ومن الطريف ما ذكره الشيخ محمد الخضر حسين حيث قال : – " جون فرن " قصة خيالية بناها على سياح يخترقون طبقات الكرة الأرضية حتى يصلوا أو يدنوا من وسطها ولما أرادوا العودة إلى ظاهر الأرض بدا لهم هنالك ان يتركوا أثراً يدل على مبلغ رحلتهم فنقشوا على الصخر كتابة باللغة العربية، ولما سئل جون فرن عن

(1) ديوان حافظ إبراهيم : ضبط أحمد أمين وآخرين ج ١ ص ٢٥٣ – ٢٥٥ (باختصار).

(2) مدينة إيزيس : بيرروسي ترجمة فريد جحا.

اختياره للغة العربية قال : إنها لغة المستقبل ولا شك أنه يموت غيرها وتبقى حية حتى يرفع القرآن نفسه"[1].

ثانياً : توحيد اللهجات وزوال ما كان فيها من وحشي:

لم يكن العرب قبل البعثة يتكلمون بلهجة واحدة بل بلهجات متعددة في شمال جزيرة العرب أما في جنوبها فقد كانوا يتكلمون بلغة حمير ولما نزل القرآن بلسان قريش وحد لسان الشمال ثم تغلغل في الجنوب حتى سادت لغته الجزيرة كلها ثم امتدت حتى صار المسلمون من المشرق إلى المغرب يقرأون القرآن بلسان قريش فكان للقرآن فضل توحيد اللغات واللهجات إلى لغة عربية فصيحة واحدة.

وكان في اللغة العربية كثير من الكلمات الوحشية الثقيلة على السمع، المتجافية عن الطبع في الشعر والنثر ويذكرون مثلاً لذلك وإن كان التكلف فيها بادياً كلمات قالها أعرابي يستجدي مالاً " أما بعد فإني أمروء من أهل هذا الملطاط الشرقي المواصي أسياف تهامة، عكفت علينا سنون محش، فأجتبت الذرى، وهشمت العرى، وجمشت النجم، وأعجت البهم، وهمت الشحم، والتحبت اللحم، وأحجنت العظم، وغادرت التراب موراً، والماء غورا، والناس أوزاعاً، والنبط قعاعاً، والضهل جزاعاً، والمقام جعجاعاً، يصبحنا الهاوي، ويطرقنا العاوي، فخرجت لا أتلفع بوصيدة، ولا أتقوت هبيدة، فالبخصات وقعة، والركبات زلعة والأطراف فقعة، والجسم مسلهم، والنظر مدرهم، أعشوا فأغطش، وأضحى فأخفش، أسهل ضالعاً وأخزن راكعاً، فهل من آمر بمير، أو داع بخير وقاكم الله سطوة القادر، وملكة الكاهر وسوء الموارد، وفضوح المصادر[2].

---

(1) القياس في اللغة العربية : محمد الخضر حسين ص ١٢.

(2) المزهر : السيوطي جـ ٢ ص ٥٠٦ – ٥٠٧.

وقال آخر في وصف المطر " استقل سُدُّ، مع انتشار الطفل، فشصا وأحزأل، ثم اكفهرت أرجاؤه، واحمومت أرحاؤه، وابذَعَرَّت فوارقه، وتضاحكت بوارقه، واستطار وادقه، وارتتقت جُوَبُه، وارتعت هيدبه، وحشكت أخلافه، واستقلت أردافه، وانتشرت أكنافه، فالرعد مرتجس، والبرق مختلس، والماء منجبس، فأترع الغدر، وانتبث الوُجُر، وخلط الأوعال بالآجال، وقرن الصيران بالرئال فللأودية هدير، وللشراج خرير، وللتلاع زفير، وحط النبع والعتم، من القلل الشم، إلى القيعان الصحم، فلم يبق في القلل إلا معصم مُجرَئم، أو داحض مجرجم، ذلك من فضل رب العالمين على عبادة المذنبين" [١].

وكانت القبائل العربية معتدة بلهجاتها، معتزة بلسانها وما إن نزل القرآن وتسامعوا به، وأقبلوا عليه يتلونه حتى سرى حبه في قلوبهم، وأطرقت إليه ألبابهم، واستولى على عقولهم حتى حل في ألسنتهم محل لهجاتهم وأخذت الكلمات الحوشية والألفاظ الوحشية تختفي من لسانهم وتحل محلها ألفاظ القرآن وذلك أن كلمات القرآن لم تتجاوز حدود هذه اللغة وقاموسها مع إيقاع خاص، وأسلوب بليغ وعبارات فصيحة، وجمل بديعة فانصرفت إليه الأذواق السليمة وما زال القرآن يعمل فيهم عمله ويرتقى بهم في بلاغته حتى أصبحوا فرسان الكلمة ورادة البلاغة.

فكان من فضل القرآن الكريم مع اللغة العربية أن هذبها من الحوشي وسار بها إلى سلامة الأسلوب وبلاغة اللفظ والمعنى وارتقى بهم في سلم التذوق البلاغي حتى صاروا أئمة فيه يرسمون أعلامه ويبدعون في بيانه.

ومما أعانهم على ذلك أن القرآن نزل بلسان قريش أفصح الألسنة وأبلغها وأسلسها فقد كانت لغة قريش أعذب اللغات وأبينها لاحتوائها على أكثر لغات العرب فقد كان العرب من أنحاء جزيرتهم يفدون إلى مكة للحج والتجارة فيخالطونهم وتتلاقح

---

(١) المرجع السابق جـ ٢ ص ٥١٧ – ٥١٨.

لهجاتهم فأخذ لسان قريش من كل لسان أفصحه فكان لسانهم مألوفاً لكل القبائل، ميسراً لكل الألسنة "

قال الفراء : كانت العرب تحضر الموسم في كل عام وتحج البيت في الجاهلية، وقريش يسمعون لغات العرب فما استحسنوه من لغاتهم تكلموا به فصاروا أفصح العرب وخلت لغتهم من مستبشع اللغات، ومستقبح الألفاظ " [١].

قال الواسطي " إن كلام قريش سهل لين واضح وكلام العرب وحشي غريب "[٢].

ولهذا أيضا نجد عثمان رضي الله عنه وهو يخاطب اللجنة المكلفة بجمع القرآن الكريم في عهده يقول لهم " إذا اخلفتم أنتم وزيد بن ثابت في شيء من القرآن فاكتبوه بلسان قريش فإنما نزل بلسانهم " [٣]. وصاروا ينفرون من الوحشي حتى قال إمام من أئمة القراءة هو أبو عمرو بن العلاء البصري : ما لسان حمير وأقاصى اليمن لساننا، ولا عربيتهم عربيتنا " [٤].

فكان لهذا أثره في توحيد قبائل العرب على لسان واحد هو لسان قريش وتنقية اللغة من الحوشي والغريب.

ثالثاً : جعل اللغة العربية اللغة الأولى في كثير من بلدان العالم الإسلامي.

لم تكن اللغة العربية وقت البعثة تعرف خارج جزيرة العرب وما إن بزغت شمس الإسلام ودخلت الأمم الأخرى فيه إلا وقد استبدلت اللغة العربية بلغاتها فالروم في الشام كلها والفرس في العراق وقل مثل ذلك في الحبشية والبربرية وسائر اللغات

---

(١) المزهر : السيوطي جـ ١ ص ٢٢١.
(٢) الأتقان في علوم القرآن : السيوطي ص ٣٣٣.
(٣) صحيح البخاري : ج ٦ ص ٩٩ .
(٤) المزهر : السيوطي جـ ١ ص ١٧٤ .

الأخرى في البلاد المفتوحة أصبحت العربية فيها هي لغتهم الأم بل وأصبحوا عرباً خلصاً. في الشام والعراق والحبشة ومصر وشمال أفريقيا كلها ما يعرف اليوم بليبيا وتونس والجزائر والمغرب وموريتانيا فأي لغة حظيت بما حظيت به اللغة العربية من القرآن الكريم في نشرها وتمكينها.

رابعاً جعل اللغة العربية لغة تعليمية :

لم تكن هناك حاجة عند العرب لوضع قواعد نحوية للغتهم فقد كانت تجري على السنتهم بالسليقة ولما اتسعت الفتوحات الإسلامية ودخلت في الإسلام أمم أعجمية واختلطت الصفراء بالحمراء شاب لسان بعض العرب شائبة اللحن فهال ذلك الغيورين فتنادوا لوضع قواعد للغة تضبط صحيحها وتنفي زائفها وكان ذلك حين سمع أبو الأسود الدؤلي من يلحن في القرآن فاستجاب لطلب زياد بوضع قواعد النحو وبذلك أصبحت اللغة العربية لغة تعليمية مؤصلة مضبوطة بالتقعيد والتأصيل والضبط والإحكام. وبذلك تيسر أمر تحصيلها ليس للعرب فحسب بل لمن دخل الإسلام من العجم وهكذا أصبحت العربية اللغة الموحدة للمسلمين عربهم وعجمهم والتزموا بها في أحاديثهم ومؤلفاتهم وعلومهم ومخترعاتهم حتى أصبحت العربية لغة العلم والعلماء بل أصبح بعض المتمدنين في غير بلاد الإسلام يدخلون الكلمات العربية في ثنايا حديثهم لإظهار تحضرهم ومدنيتهم حتى أصدرت الكنيسة في أوروبا تحذيراً من ذلك. وما ذاك إلا لأن العربية أصبحت لغة العلم والحضارة والتمدن.

وهناك في عصرنا الحديث – من يحاول التشكيك في صلاحية اللغة العربية للتعليم وقصورها عن التعبير الوافي عن المصطلحات العلمية وما ذاك إلا تحت تاثير الغزو الفكري والشبه الواهية في ذلك وما سعيهم هذا إلا جزء من المحاولة الكبرى التي أشرت إليها فيما سبق أن الطعن في اللغة وسيلة للطعن في القرآن والدين الإسلامي كله، وإلا فاللغة العربية لو أتيح لها قادرة على إيصال كل المعاني

والعوم بألفاظها الثرية وعبارتها الوافية ودلالاتها الظاهرة، ولا شك أن هجر اللغة واستبعادها عن ميدان العلوم في كثير من الجامعات هو علة عدم الثقة بها وهذا الاعتقاد الخاطئ عنها فالحكم عليها حكم جائر لأنه تم بلا تجربة لها ولا استعمال لها ، فعدم صلاحيتها بزعمهم نتاج تجميدهم لها وعدم تفعليهم لها والاتفاق على المصطلحات المناسبة لعلومهم بها ولعلنا نذكر أن سورية من البلدان العربية القليلة التي أولت العربية بعض عنايتها فقد قامت الحكومية العربية فيها بتأليف لجنة لترجمة المصطلحات الحضارية الدخيلة من التركية والفارسية، وعندما أنشئ المجمع العلمي العربي في سورية سنة ١٩١٩ م كان من بواكير أعماله دراسة الألفاظ الأجنبية الشائعة في الدولة ووضع ألفاظ عربية مقابلة لها، وألحت جامعة دمشق والجامعات السورية الأخرى على التعليم باللغة العربية وألزمت كل عضو هيئة تدريس أن يؤلف أو يترجم كتاباً في كل مقرر يدرسه، وتجاوز عدد الكتب المطبوعة الآلاف وقام طلاب السنة الأخيرة من كليات الطب بترجمة عشرات الكتب والمراجع العلمية الطبية إلى اللغة العربية وسارت على هذا النهج بعض الجامعات في العراق والسودان والجزائر.

وكان مما ينبغي أن لا تقف هذه الخطوة الرائدة عند هذا الحد بل يجب أن نواصل الخطوات في سبيل ذلك إذا ما اردنا أن نثبت للناس أن اللغة العربية لغة الحضارة والعلم [١].

خامساً : نبوغ عدد من المسلمين غير العرب في العلوم الشرعية :

وأدى نشر القرآن الكريم للغة العربية وتكريمه لها إلى إقبال الداخلين في الإسلام عليها وتعلمها حتى أصبحت لسانهم الأصيل ولغتهم الأولى فدونوا علومهم

---

(١) اثر القرآن الكريم في اللغة العربية : د / محمد يوسف الشربجي (مجلة التراث العربي) العدد ٩٠ .

ومعارفهم بها فأمدوا العربية بعلوم ومعارف لا تزال رائدة في التفسير والحديث والعقائد والفقه واللغة العربية والتاريخ وسائر العلوم الإسلامية.

بل إن أكثر علماء المسلمين وروادهم من غير العرب فمنهم البخاري والنيسابوري والأصبهاني والزمخشري والترمذي والنسائي والطبري والمروزي والبيهقي والهمداني والجرجاني والأندلسي والقرطبي والغرناطي والسيوطي والرومي والإيجي والفيروز آبادي وغيرهم وما كان ذلك ليكون لولا ان القرآن الكريم حملهم على حب العربية والإقبال عليها حتى برعوا فيها وفي علومها أكثر من كثير من أهلها.

سادساً : انتشار مدارس تحفيظ القرآن الكريم في العالم الإسلامي :

وأقبل الداخلون في الإسلام على تعلم القرآن الكريم ودراسته وحفظه وتحفيظه فانتشرت مدارس التحفيظ في سائر أرجاء العالم الإسلامي حتى لا تكاد تخلو بقعة من بقاعه من مدرسة أو مسجد أو خلوة أو معلم ومحفظ للقرآن.

وهم – حين يحفظون القرآن أو يتلونه – إنما يفعلون ذلك بلغته العربية التي نزل بها فتمكنت ألسنتهم من أحكام تلاوته وأصبح العجمي الذي لا يكاد يعرف العربية يقرأ القرآن بلسان عربي مبين لا يكاد يقرأ بمثله كثير من العرب أنفسهم.

سابعاً : كثرة عدد حفاظ القرآن الكريم من غير العرب :

ونتيجة لانتشار مدارس التحفيظ في العالم الإسلامي فقد خرجت هذه المدارس الآلاف المؤلفة من حفاظ القرآن المهرة المتقنين الذين بزوا أقرانهم من العرب بل اصبح كثير منهم معلماً للقرآن في البلاد العربية وهو لا يحسن العربية.

ولم يقتصر على ذلك الأمر بل رأينا من يحفظ القرآن ممن لا يتقن العربية أطفالاً لم يتجاوزوا الخمس سنوات يحفظون القرآن كاملاً بلسان عربي مبين ولا ينتهي بك العجب حين ترى هذا الطفل الصغير الذي لم يتجاوز كما قلت الخامسة ولا يعرف اللغة العربية ويعرف أرقام الآيات وصفحاتها وبداية كل صفحة ونهايتها وهو لا يعرف العربية ولا تجد لذلك علة معقولة ولا إجابة سليمة إلا قوله تعالى " ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مذكر " [١] .

وها نحن نرى في احتفالات جمعيات تحفيظ القرآن أعداداً متجددة من ذلك ونرى في الاحتفال السنوي للهيئة العالمية لتحفيظ القرآن الكريم التابعة لرابطة العالم الإسلامي في كل سنة عدداً من هؤلاء من قرقيزستان والهند وباكستان وغيرهن من

---

(١) سورة القمر : الآية ١٧ .

أتقنوا حفظ القرآن الكريم فإذا سألته بالعربية عن أسمه لم يكد يفهم ما تقول فإذا قرأ القرآن حسبته أبن العربية وبجدتها .

ثامناً : انتشار اللغة العربية في العالم الإسلامي:

قال الشيخ احمد حسن الباقوري : " إن اللغة العربية ما كانت تطمع في أن يتعدى سلطانها جزيرتها فتضرب الذلة على لغات نمت في أحضان الحضارة وترعرعت بين سمع المدينة وبصرها وتستأثر دونها بالمكان الأسمى في ممالك ما كان العربي يحلم بها فضلاً عن أن يكون السيد المتصرف فيها، ولكن القرآن، انتزعها من أحضان الصحراء وأتاح لها ملكاً فسيح الأرجاء تأخذ منه لألفاظها ومعانيها، وأغراضها وأسلوبها، ما لم تمكنها منه حياتها البدوية، فبعد أن كانت ثروتها في حدود بيئتها أصبحت غنية في كل فنون الحياة فأقبل الناس عليها مدفوعين إلى معرفة أحكام الدين، وأداء واجبات الإسلام " [١]

وهذا ما اضطر " إرنست رينان " وهو الصليبي المتعصب ضد الإسلام واللغة العربية إلى أن يقول " من أغرب ما وقع في تاريخ البشر وصعب حل سره انتشار اللغة العربية، فقد كانت هذه اللغة غير معروفة بادئ بدء، فبدأت فجأة في غاية الكمال سلسة أي سلاسة، غنية أي غني، كاملة بحيث لم يدخل عليها إلى يومنا هذا أي تعديل معهم، فليس لها طفولة ولا شيخوخة، ظهرت لأول أمرها تامة مستحكمة، ولم يمض على فتح الأندلس أكثر من خمسين سنة حتى أضطر رجال الكنيسة إلى أن يترجموا صلواتهم بالعربية ليفهمها النصارى " [٢]

ويقول مرجليوث أستاذ اللغة العربية في جامعة أكسفورد " اللغة العربية لا تزال حية حياة حقيقية، إحدى ثلاث لغات استولت على سكان المعمورة استيلاء لم

---

(١) أثر القرآن الكريم في اللغة العربية : أحمد حسن الباقوري ص ٤٩ .

(٢) اللغة العربية بين حماتها وخصومها : أنور الجندي ص ٢٥ .

يحصل عليه غيرها : الإنجليزية والإسبانية أختيها ، وتخالف أختيها بأن زمان حدوثهما معروف ولا يزيد سنهما على قرون معدودة، أما اللغة العربية فابتداؤها أقدم من كل تاريخ " (١)

ويقول جورج سارتون : أصبحت اللغة العربية من اللغات البارزة في العالم، وإحدى الوسائل الأساسية للثقافة في العصور الوسطى وهي – إلى اليوم – لم تزل لغة أمة موزعة في جميع بقاع الأرض " (٢) .

وأخيراً هذا بروكلمان المستشرق الألماني يقول " بفضل القرآن بلغت العربية من الإتساع مدى لا تكاد تعرفه أي لغة أخرى من لغات الدنيا، والمسلمون جميعاً مؤمنون بأن اللغة العربية هي وحدها اللسان الذي أحل لهم أن يستعملوه في صلواتهم، وبهذا اكتسبت اللغة العربية منذ زمان طويل مكانة رفيعة فاقت جميع لغات الدنيا الأخرى التي تنطق بها شعوب إسلامية " (٣)

تاسعاً : تحويل اللغة العربية من لغة إقليمية إلى لغة عالمية :

لم تكن اللغة العربية وقت البعثة تتجاوز جزيرة العرب محادثة أما تأليفاً فلم يكن ثم شيئاً من ذلك فلما أشرقت شمس الإسلام وأضاء بأنواره أرجاء المعمورة نشر معه اللغة العربية أينما وحيثما حل وبلغ.

وجعل علماء المسلمين من غير العرب يكتبون كتبهم ويؤلفون مؤلفاتهم باللغة العربية كالرازي وابن سينا، والفارابي والبيروني والطبري والغزالي فخرجت من حيزها الضيق المحادثة في الجزيرة إلى الأفق الأوسع المحادثة والتأليف والكتابة والتعلم والتعليم في سائر أنحاء العالم الإسلامي.

---

(١) المرجع السابق .

(٢) المرجع السابق .

(٣) لغة القرآن الكريم ك د. عبد الجليل عبد الرحيم ص ٥٨٧ عن تاريخ الأدب العربي : كارل بروكلمان جـ ١ ص ٢٣ (ولم أجده)

وتبنت اللغة العربية دول إسلامية كثيرة وأصبحت لغة ثانية في كثير من بلدان العالم الإسلامي بل اللغة الأولى في بلدان أخرى كالشام والعراق وأفريقيا والحبشة.

بل إن بعض الشعوب الإسلامية استخدمت الحروف العربية لكتابة لغتها ولهجتها كالأوردية والفارسية والتركية وغيرها.

وها نحن نرى في مسابقات تلاوة القرآن وحفظه أن أغلب الفائزين في المراتب الأولى هم من أبناء المسلمين غير ا لعرب وفي هذا إشارة إلى المكانة العالمية التي منحها القرآن الكريم للغة العربية .

عاشراً : تقديم النموذج الأعلى للغة والبلاغة والفصاحة بعد أن لم تكن :

تمثل النموذج أو القدوة أمر لا بد منه للتنافس للوصول إليه أو إلى الاقتراب منه ، وهو أمر يحدد الهدف، ويرسم المسار ويقرب المثال ويوضح الصورة ويجلوا الحقيقة.

ولم يكن عند العرب حينذاك مثال لقمة البلاغة والفصاحة وإن كانوا يدركون البلاغة ويتذوقون الفصاحة، ويأسرهم البيان، حتى نزل القرآن الكريم فأدهشتهم فصاحته وأسرتهم بلاغته وملك افئدتهم بيانه حتى أعياهم الإتيان بمثله أو التعبير عنه حتى قال قائلهم : " والله إن له لحلاوة وإن عليه لطلاوة وإن أعلاه لمثمر وأن أسفله لمغدق وأنه ليعلو ولا يعلى عليه " .

فكان القرآن مثال البلاغة المعجز الذي أجمعوا على اختلاف أذواقهم ومشاربهم وتعدد مسالكهم ومناهجهم، واختلاف ألسنتهم ولهجاتهم على إعجازه في بيانه وبلاغته وفصاحته وأنه لا يمكن لأحد أن يأتي بمثله فكان ذلك إيذانا بميلاد المثل الأعلى في البيان والبديع والفصاحة والبلاغة.

وأصبح لهم ثَمَّ مقياس يحتكمون إليه، وهدف يسعون إليه فأقبلوا عليه ونهلوا منه واستخرجوا منه مقاييس البلاغة وموازين الفصاحة وضربوا لكل نوع منها أمثلة من الآيات القرآنية ولذا نجد التمازج التام في مؤلفاتهم البلاغية بين الآيات القرآنية وأبواب البلاغة.

فاستخرجوا من القرآن علم البلاغة واستنبطوا منه أمثلتها فكان للقرآن فضل على اللغة العربية أن جعل لبلاغتها ضابطاً ولفصاحتها ميزاناً عدلاً.

ونجد إبن خلدون يصرح بهذا في قوله عن علم البيان " إعلم أن ثمرة هذا الفن إنما هي في فهم الإعجاز من القرآن " [١]

حتى غير العرب أدركوا هذا المعنى فهذا جورج سارنوت يقول : – ولغة القرآن، على اعتبار أنها لغة العرب كانت بهذا التجديد كاملة وقد وهب الرسول(ﷺ) اللغة العربية مرونة جعلتها قادرة على أن تدون الوحي ألإلهي أحسن تدوين بجميع دقائق معانيه ولغاته، وأن يعبر عنه بعبارات عليها طلاوة وفيها متانة، وهكذا يساعد القرآن على رفع اللغة العربية إلى مقام المثل الأعلى في التعبير عن المقاصد " [٢] .

---

(١) مقدمة ابن خلدون : ص ٥٥٢

(٢) لغة القرآن الكريم : عبد الجليل عبد الرحيم ص ٥٨٦ – ٥٨٧

الحادي عشر : وحدة العالم الإسلامي :

تعتبر اللغة من أقوى الروابط بين المجتمعات، فبها تتوثق الصلات، وتقوى الروابط، ولذا فإنا نجد أن المستعمر يسعى أول ما يسعى لفصل البلدان عن هوياتهم وتفكيك أواصرهم، وحل ترابطهم بتهميش لغتهم، وربطهم بلغته حيث نجد الاستعمار الإنجليزي ينشر اللغة الإنجليزية والاستعمار الفرنسي ينشر اللغة الفرنسية وهذا يؤدي إلى عملين خطيرين فصل الشعوب عن رابطتهم وتوثيق رابطتهم بالمستعمر ولا نزال نجد آثار هذا الاستعمار ماثلاً في بعض البلدان العربية الذين أصبحت هوية بعض شبابهم وائتمائه فرنسية ولذا نجد اللورد كرومر عند غزوه لمصر يسعى لوضع خطة تعليمية تهدف إلى إبعاد اللغة العربية عن ميدان التعليم واستبدل بها اللغة الانجليزية وقد رد عليه حافظ إبراهيم بقوله :

" **قضيت على أم اللغات وإنه ... قضاء علينا أو سبيل إلى الردى** " [1] .

ولا شك أن اللغة ليست مجرد تعبير عن مشاعر أو معانٍ وليست مجرد تواصل فكري وإنما هي هوية وانتماء ولا هوية لمن لا لغة له ولا انتماء .

---

(1) ديوان حافظ إبراهيم من قصيدة قالها في وداع اللورد كرومر عند استقالته وأشار فيه إلى ما أراده كرومر من جعل دراسة أكثر العلوم في المدارس باللغة الإنجليزية جـ ٢ ص ٢٨ .

الخاتمة :

ولعلي أختم هذا البحث المختصر بتوصيات يسيرة :

أولاً : اللغة العربية هي لغة القرآن الكريم وينبغي أن نغرس محبتها في نفوس الناشئة.

ثانياً : تطوير وسائل تعليم اللغة العربية وتيسير قواعدها وتقريبها إلى الأذهان واستخدام الأجهزة الحديثة في ذلك.

ثالثاً : إيقاظ الغيرة في النفوس على اللغة العربية وتوعية شباب الأمة بآثار إهمالها.

رابعاً : تفعيل الاستفادة من تجارب بعض الدول في تعريب العلوم والتدريس في الكليات العلمية والطبية باللغة العربية والحث على دفع عجلة التعريب والالتزام باللغة العربية.

خامساً : إنشاء مؤسسات خاصة وجمعيات ومنظمات تعنى بدراسة أحوال اللغة العربية وسبل تطويرها ونشرها وإحيائها في العالم الإسلامي. وترجمة الكتب العلمية والطبية إلى اللغة العربية ووضع المصطلحات اللازمة لذلك ونشرها.

المصادر والمراجع

١- الإتقان في علوم القرآن : جلال الدين السيوطي، دار الكتاب العربي بيروت ١٤٢٥ هـ - ٢٠٠٤ م.

٢- أثر القرآن الكريم في اللغة العربية : أحمد حسن الباقوري دار المعارف بمصر - ١٩٦٩ م .

٣- اثر القرآن الكريم في اللغة العربية : د. محمد يوسف الشربجي، بحث منشور في مجلة التراث العربي، مجلة فصلية تصدر عن إتحاد الكتاب العرب – دمشق العدد ٩٠ السنة الثالثة والعشرون ربيع الآخر ١٤١٤ هـ الموافق يونيو ٢٠٠٣ م.

٤- أساليب المواجهة الفكرية نوافد الدخول إلى المستقبل : فوزي معروف. ضمن بحوث (الندوة السنوية لجمعية البحوث والدراسات (العرب وتحديات المستقبل) منشورات اتحاد الكتاب العرب دمشق ٢٠٠٢ م .

٥-ديوان حافظ إبراهيم : ضبطه وصححه أحمد أمين وأحمد الزين وإبراهيم الإبياري الناشر محمد أمين دمج – بيوت ١٩٦٩م .

٦- صحيح البخاري : المكتبة الإسلامية استانبول – تركيا ١٩٧٩ م .

٧- القياس في اللغة العربية : محمد الخضر حسين دار الحداثة الطبعة الثانية – ١٩٨٣ م .

٨- اللغة العربية بين حماتها وخصومها : أنور الجندي – مطبعة الرسالة .

٩- اللغة العربية والعولمة : د. عمر عبد الهادي عتيق بحث منشور في الشبكة العالمية – منتدى أنصار السنة.

١٠- لغة القرآن الكريم : د / عبد الجليل عبد الرحيم – مكتبة الرسالة الحديثة الأردن – عمان الطبعة الأولى ١٤٠١ هـ - ١٩٨١ م .

١١- مدينة إيزيس (التاريخ الحقيقي للعرب) : بيرروسي ترجمة فريد جحا – وزارة التعليم العالي – دمشق ١٩٨٠ م .

١٢- المزهر في علوم اللغة وأنواعها : جلال الدين السيوطي شرحه وضبطه محمد أحمد جاد المولى ومحمد أبو الفضل إبراهيم ، وعلى محمد البجاوي دار إحياء الكتب العربية – عيسى البابي الحلبي وشركاه الطبعة الرابعة ١٣٧٨ هـ – ١٩٥٨ م .

١٣- مقدمة ابن خلدون : دار إحياء التراث العربي – بيروت لبنان الطبعة الثالثة .